مجلة دراسات إنسانية واجتماعية (Journal of Social and Human Science Studies) ج وهران2/ المجلد 10 ع 2 خ / 16 /03/ 2021
ISNN : 2253-0592 EISSN : 2588-199X / Prefix: 10.46315

# الحضور الصوفي في المجال الطبي بين التجربة والكرامة

## Sufi presence in the medical field between experience and miracles


| | | |
|---|---|---|
| صديقي محمد* Seddiki Mohamed<br>9889med@gmail.com | تاريخ المغرب الوسيط والحديث | مختبر إسهامات علماء الجزائر في إثراء العلوم الإسلامية / كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية/ جامعة حمة لخضر/ وادي سوف |
| أ.د عاشوري قمعون Achouri Guemaon<br>achouriguemaon@yahoo.fr | تاريخ أوربا في العصور الوسطى | مختبر إسهامات علماء الجزائر في إثراء العلوم الإسلامية / كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية/ جامعة حمة لخضر/ وادي سوف |


DOI : 10.46315/1714-010-002-033

**الإرسال:** 2020/04/15 **القبول:** 2020/09/06 **النشر:** 2021/03/16

**ملخص:** تعالج هذه الدّراسة دور الصّوفية في المجال الطّبّي خلال القرن السّادس للهجرة الثاني عشر للميلاد، وذلك من خلال إبراز الدّور الذي قامت به هذه الفئة في المجال الصّحّي، وقد شكلت المعالجات الطبية عند الأولياء نوع من أنواع استقطاب العامة في تلك الفترة من خلال مشاركة البعض من المتصوفة في هذا المجال بحيث قاموا بعملية العلاج والمداواة بأساليب أكثر غموضاً تعتمد على الكرامة والبركة، وهذه الوسائل تختلف عن الطب العلمي وكذلك الطب الشعبي القائم أنذك أما الاستعانة بالأعشاب والعقاقير في عملية المداواة فكانت وفق معرفة علمية أو تجربة لمفعول كل نبتة وهذه التجربة نجدها خاصة عند المطببين الشعبين، ولعلّ من المتصوفة من كان لهم معرفة بأصول النبات وإمكانية إدراج بعض الوصفات في عملية العلاج والمداواة، وبالنظر للعامة رغم وجود حكماء وأطباء لهم دراية بالصناعة الطبية، إلا أن الكثير من أفراد المجتمع آثر العلاج والمداواة عند المتصوفة على غيرهم من الأطباء في تلك الفترة.

**الكلمات المفتاحية:** المغرب الإسلامي، التصوف، الكرامات، الطب الصوفي، الطب الشعبي، الأعشاب والعقاقير

**Abstract:**

This studyaddresses the role of Sufism in the medicalfieldduring the sixthcentury AH and the twelfthcentury AD, by highlighting the roleplayed by thiscategory in the healthfield, and medicaltreatmentamong the saints was a kind of public polarization in thatperiodthrough the participation of some of the Sufis In thisfield, researchcarried out the treatment and medicationprocesswith more obscure methodsthatdepend on dignity and blessing, and thesemethodsdifferfromscientificmedicine as well as existingpopularmedicine for you. As for the use of herbs and drugs in the medicationprocess, theywereaccording to scientificknowledge or experience for the effect of each plant and thisexperiencewefind. It is a mysteryamong the twopeople'spractitioners. Perhapsitisfrom the Sufis who have knowledge of the origins of the plant and the possibility of includingsome prescriptions in the process of treatment and medication. That period.

**Keywords** :Islamic Maghreb; Sufism; Karamat; Sufi medicine; folk medicine; herbs and drugs.

*الباحث المُرسل: med@gmail.com9889

## 1- مقدمة:

إن موضوع التصوف من المواضيع التي أسيل فيها الحبر الكثير، فقد دأبت الدراسات المتعددة على معالجة ظاهرة التصوف وطرق انتشارها إلى بلاد المغرب الإسلامي، وفصلت في أصل الكلمة وأعلام التصوف الذين نشروه في البلاد، لكن موضوعنا يعالج الحضور الصوفي في الجوانب الصحية. ومنه فالمتصوفة لم يكن لهم طب علمي قائم على الكتب الطبية القديمة كما كان عليه الأطباء في ذلك العصر، لكن اعتمدوا في المعالجة والاستشفاء على ظاهرة الكرامة التي تكون للأولياء دون غيرهم، كما انتشر الطب الشعبي القائم على الاعتماد على الأعشاب والعقاقير، ويمكن الالتفات إلى نقطة هامّة تشير إليها المادة التاريخية ألا وهي تمسّك العامّة بطبّ الأولياء وترددهم عليهم للاستشفاء وحتى بعد الممات، ويرجع هذا الإقبال إلى عدة عوامل خدمت فئة المتصوفة، منها الاقتراب الاجتماعي، فهم يعيشون نفس ظروف العامّة، خاصة الفئة البسيطة ويقاسمونهم محنهم المختلفة، فما مدى تَمكُنْ المتصوفة في المجال الطبي ومعالجتهم لمختلف الأمراض؟

## 2.مفاهيم حول التصوف والكرامة

بخصوص المفاهيم التي هي ضمن الدّراسة كالتّصوّف والكرامة يمكن أن نقدم مفاهيم حولها بصورة ملخصة ونركزّ على الأسباب التي جعلت المتصوّفة يستقطبون العامّة، وأهم طرق العلاج المعتمدة في تلك الفترة من ق6هـ/12م.

### 1.2 التصوف في بلاد المغرب الإسلامي

على العموم فالتّصوّف عند ابن خلدون هو الانقطاع إلى الله عز وجل، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها (ابن خلدون، ع، 2001، صفحة 611)، أما اعند أبي الحسن النوري فالصوفية قوم صفت قلوبهم من الكدورات البشرية وآفات النفوس، وتحرّروا من شهواتهم حتى صاروا في الصّفّ الأول، والدرجة العليا (ابن قيم الجوزية،م، 2011، صفحة 820).

ويرجع دخول التّصوّف إلى بلاد المغرب نتيجة عدة عوامل، حيث كانت الرّحلات المختلفة إلى بلاد المشرق الإسلامي لأغراض دينية كالحج والعبادات والتجارة سبباً في دخول التصوف إلى المغرب (شرويك، م، 2017، صفحة 93)، كما أنّ ظاهرة التأليف ساعدت في انتشار التّصوّف في البلاد، ومن المؤلفات الصوفية التي تعتبر ذات قيمة علمية منها "الرسالة القشيرية" للقشيري، و"قوت القلوب" للمكي، "إحياء علوم الدين "للغزالي (تركي، ع، 2008، صفحة 352).

يرجع الباحثون أنّ انتشار التّصوّف في بلاد المغرب هو نتيجة للاتصال بين المشرق الإسلامي والمغرب وظهور المؤلفات الصوفية (جورج، م، 1999، صفحة 288) بالتحديد في الفترة الممتدة بين القرنين5-6هـ/11-12م عندما بدأ كتاب الغزالي " إحياء علوم الدين" يثير جدلا كبيراً في المجتمع

المغاربي خلال فترة حكم المرابطين نظرا لما يحمله من أبعاد صوفية وتأويلات لآيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية، فطلب يوسف بن تاشفين من قاضي قرطبة إحراق كتاب "الإحياء" (شرويك، م، 2017، صفحة 100)، وقد أثارت عملية الحرق للكتاب جدلاً علمياً بين فقهاء المغرب والاندلس وأصدر أمر بإنزال أشد العقوبات على من وجد بحوزته نسخة من هذا الكتاب (ابن القطان، م، 1990، صفحة 14)وكانت هذه التطورات سبباً في دخول التصوف إلى بلاد المغرب، غير أن فترة الموحدين أزالت القيود التي وضعها فقهاء الدولة المرابطية حول التصوف، مما كان لها الأثر في انتشار التصوف في البلاد وأصبحت الكتب الصوفية" كالإحياء" و" الرسالة القشيرية" تدّرس في المؤسسات التعليمية والمجالس الفقهية والفكرية (شرويك، م، 2017، صفحة 95).

**2.2 الكرامات من حيث المفهوم والشروط**

تعدّدت المفاهيم في معنى الكرامة واقترنت بما للأنباء من معجزات وذكرت أنها الفضيلة، فالكرامة على حسب ابن القطان المراكشي( هي ظهور أمر خارق للعادة من قبل شخص غير مقارن لدعوى النبوة) (ابن القطان،م، د،ت، صفحة 75)، ويذكرها عالم الاجتماع ماكسن ويبير Max Weber (الصفة الاستثنائية لشخص يظهر مقدرة غير طبيعية فوق بشرية أو على الأقل غير مألوفة، بحيث يبدو وكأنه كائن سماوي مثالي أو استثنائي، ولهذا السبب يجمع حوله أتباعاً وأنصاراً) (Max, W.، 1968، صفحة 219)، والكرامة ثابتة للأولياء لا تقارن بالمعجزات فإذا كان الله قد دلّ على صدق الأنبياء بالمعجزات، جاز أن يدل على طاعة الأولياء بالكرامات لما في ذلك من الحث على طاعته والترغيب في عبادته (البرزلي, أ ، 2002، صفحة 255)، ويقول الصنعاني نقلًا عن السبكي ( وكرامات الأولياء حقٌ أي جائزة وواقعة) (الصنعاني، م. ب، 1997، صفحة 17)، كما أن الكرامة تصح عند الصنعائي بإجابة الدعوات وتسير الطلبات أمر لا شك فيه ...وهو حاصل للمؤمنين إذا خلصوا النيات وأقبلوا على الله تعالى إقبال صدقٍ وثبات (الصنعاني , م. ب، 1997، صفحة 71)، في حين الفضيلة هي الخصلة الحسنة تكون في الإنسان من اعتقاد صحيح وفعل جميل وخلق محمود (ابن القطان،م، د،ت، صفحة 76)، أما المنقبة فهي كرم الفعل؛ عرفها ابن القطان نقلا عن الزبيدي (والمنقبة المفخرة وجمعها مناقب أخلاق جميلة) (ابن القطان،م، د،ت، صفحة 76) .

هناك من ذهب إلى أن (الكرامة لا تنقطع بالموت) (ابن قنفذ، أ. ب، د،ت، صفحة 97). يؤكد هذا القول والتوجه البرزلي بقوله: (رأينا كرامات الأولياء وأحياءً وأمواتاً، فلا ينكرها إلا مخذول فاسد الاعتقاد في أولياء الله وخواصّ عباده نفعنا الله ببركاتهم وبحسن الاعتقاد في جنباتهم) (البرزلي، أ ، 2002، صفحة 227)، حتى أن الكثير من الناس اعتادوا على التبرك على القبور والتوجه إليهم قصد البركة أو الاستشفاء.

لكن ليس كل ما له خوارق تعد من الكرامات، ويؤكد ذلك ما جاء في الرسالة القشيرية (ظهور الكرامات على الأولياء جائز، لأنه أمر موهوم حدوثه في العقل لا يؤدي حصوله إلى رفع أصل من الأصول ... وظهور الكرامات علامة صدق لمن ظهرت عليه في أحواله، فمن لم يكن صادقاً فظهور مثلها عليه لا يجوز) (النبهاني، ي. ب، د،ت، صفحة 27)، يفصل في ذلك الطهطاوي نقلا عن أبو زيد البسطامي( لو نظرتم إلى رجل أعطى من الكرامات حتى طار في الهواء أو مشى على الماء فلا تتأثروا به حتى تنظروا إليه عند الأوامر والنواهي والحدود الشرعية) (الطهطاوي،ع. م، د، ت، صفحة 16) ومثل ذلك قال أبو القاسم الجنيد، فقد ظهر في المجتمع من يدعى أن له كرامات وهو من الصالحين لكن لا يمتثل للأوامر والنواهي الشرعية وقد عده العلماء أنه ليس من أهل الكرامات، ويذكر الحسن الوزان نماذج عن من التقائهم وادعوا الولاية والصلاح( ويهيم الكثير من الدجالين على وجوههم في إفريقيا عراة مكشوفي العورة، وهم على درجة منحطة من عدم الامتثال والاحترام الإنساني بحيث يضاجعون النساء أحياناً في الساحات العمومية ...ومع هذا يعتبرهم العامة من اولياء الله) (الوزان، ح، 1983، صفحة 128)، وعند مكوثه في المغرب الأقصى بفاس شاهد بعض الأشخاص الذين يحملون اسم الصوفية أي علماء الأخلاق وشيوخها

( يسيرون على قوانين خارجة عما شرعه محمد صلى الله عليه وسلم ...غير أن العامة تعتقد انهم اولياء صالحون) (الوزان، ح، 1983، صفحة 267) فقد افتن العامة بأمر هؤلاء ولم يعيروا اهتماما على مدى انصياعهم للضوابط الشرعية، ولم يكن هناك تفريق بين الولي الصالح العابد الزاهد وبين من يدّعي أنه من الأولياء.

### 3.2 الفرق بين الكرامة والمعجزة

أما الفرق بين الكرامات والآيات والمعجزات فما ينخرق للأنبياء عليهم السلام آيات، فإن تحدوا بشيء منها ودعوا بسببه إلى الإيمان بما رءوا به أو الإتيان بمثله، كان ما تحدوا به من تلك الآيات معجزات ويسمون ما تنخرق به العادة للأولياء كرامات، فإذا انخرقت العادة للأولياء، فهي كرامة، وإذا انخرقت لّلأنبياء فهي آية، وإن تحدى الأنبياء بشيء فهي معجزة (ابن القطان،م، د،ت، صفحة 76)، فالمعجزات تختص بالأنبياء والكرامات تكون للأولياء، ولا تكون للأولياء معجزة (ابن القطان،م، د،ت)، كم أن النبي يعرف نفسه انه نبياً لأنه داعٍ نبوته إلى الخلق، والولي يستحيل أن يعرف كونه وليا كما ذهب إليه الكثيرون (ابن القطان،م، د،ت، صفحة 137).

### 3. أسباب توجّه العامّة إلى طبّ المتصّوفة

لقد شكلت كوارث القحط والجوع والغلاء والأمراض مناسبات للفئات الفاعلة في المجتمع وخاصة العلماء والصُّلحاء لربط جسور التّكافل ومد يدّ المساعدة للمنكوبين، كما تنافسوا في

الإنفاق لإغاثة المشردين والمرضى وإطعام المتضورين جوعاً (البياض، ع، 2008، صفحة 266)، ومن الجوانب التي جعلت العامة يقتربون من المتصوفة ما يلي:

**1.3 ظاهرة الفقر و إيثارها على الغنى**

لقد تميز الأولياء بفقرهم وأثروه على الغنى، ويؤكد ذلك قول الباديسي (فجماعة الأولياء يفضلون الفقر عن الغنى) (الباديسي، ع، 1993، صفحة 02)، وقد كانت طرق عيشهم أكثر بساطة تظهر في لباسهم ومأكلهم، فقد كان الشيخ المتصوف أبو يعزى يقتات من أقراص من دقيق البلوط، كان يجعل معها أوراق اللبلاب ويطحنها ما كان يأكل إلا نبات الأرض ولا يشارك الناس في شيء من معاشه (ابن الزيات, أ، 1997)، وقد اختار الأولياء الفقر عن الغنى كأسلوب حياة، فعندما ورث الشيخ المتصوف أبي الحسن بن حرزهم ميراثًا قدّمه إلى أخيه (بقوله: أحضر الشهود لأتصدق عليك بميراثي) (ابن الزيات، أ، 1997، صفحة 170). من صور إيثار الفقر ما كان يتصدق به أبو عمران فقد كانت له400 دينارا وقت المجاعة التي كانت عام 591هـ/ 1195م فقام بتوزيعها كلها على المساكين (ابن الزيات, أ، 1997، صفحة 289) وبقي فقيراً، لقد أثر المتصوفة مساعدة المحتاجين والبقاء في فقر، خاصة أيام الشدة وهذا الشيخ أبو زكريا التادلي كان ذا مالٍ وقام بتفريق جميع ماله على الفقراء والمساكين في مجاعة حلت في مراكش.

لقد اهتم المتصوفة بالفقراء والمساكين وعابري السبيل فابن قنفذ القسنطيني عندما ذكر الفقيه الورع أبا عبد الله محمد الجناتي (كان يبادر إلى خدمة الغريب المريض ويسعى في أمره) (ابن قنفذ، أ. ب، د،ت، صفحة 76)، هذه المبادرات والمساعدات الفردية من المتصوفة تأسر العامة وتجعلهم يثقون كل الثقة في فئة الأولياء.

**2.3. التصدق والإنفاق عل الفقراء**

لقد عانى النّاس كثيرا من أثر الكوارث التي كانت تصيب البلاد، يقدّم ابن العربي صورة مؤلمة عن ما قساه العامة، فقد كان بإيلان أغمات في مجاعة 535هـ/ 1485م (وقد ضاقت الأرض برحبها عن المساكين، فحشرت إلينا منهم زمر وعمهم الوباء وكنت بدار غربة في حال كربة، فرأيت الذي يلزمني منهم واحدة، أخذت إثنين وكنت أتيهم كل يوم برغيفين) (بوتشيش، إ، 2008، صفحة 201)، وكثيراً ما تشير كتب المناقب على العطف والإشفاق من المتصوفة على الفقراء والمساكين؛ فالشيخ أبوداود مزاحم كان(على المحتاجين مشفقاً (الباديسي، ع. ، 1993، صفحة 51)، كما أن محمد الحفناوي الإشبيلي ت 758هـ/ 1356م نزيل فاس غلب على تصوفه الاتجاه الاجتماعي فقد كان يسلك طريق الإيثار على المحتاجين (المنوني ، م، 2000، صفحة 44).

أما الوالي الصالح أبو يعزي فقد ذاع صيته في التصدق على الفقراء والمساكين والمسافرين وكان(يطعم الواصلين إليه العسل ولحم الضأن والدجاج) (ابن الزيات، أ، 1997، صفحة 215)،

وكذلك الشيخ المتصوف عمر بن معاذ الصنهاجي لما أتت مجاعة 535هـ /1140م جمع خلقاً كثيراً من المساكين فكان(يقوم بمؤونتهم وينفق عليهم ما يصطاده من الحوت وغيره إلى أن أخصب الناس) (ابن الزيات، أ، 1997، صفحة 183)، والمتصوفة كانوا يؤثرون الإنفاق على أصحاب الحاجة رغم احتياجهم وفاقتهم فقد أتت امرأة مسكينة إلى زوجة أبي عمران لكي تطلب منه أن يعطيها من الصدقة التي كان يفرقها على الفقراء والزوجة لم يكن لديها علم بما يصدقه زوجها على الفقراء والمساكين (ابن الزيات, أ، 1997، صفحة 299)، لقد دأب المتصوفة على الإنفاق ومساعدة الفقراء والمساكين كما حث الناس وخاصة الأغنياء منه على الصدقة فالشيخ أبو يعزي كان يتشدد كثيراً في أمر الصدقة، وعندما حبس المطر جاء إليه أحد الفلاحين يشكوه ذلك قال: (إنما احتبس لشح الناس فلو تصدقوا لمطروا فقل لإصحابك من الفلاحين تصدقوا، بقدر ما أنفقتم تمطروا) (ابن الزيات، أ، 1997، صفحة 466)، ولقد تصدق المتصوفة بكل أشكال المؤن كما يذكر صاحب المناقب المرزوقية عن عمه لما كانت له مطامير من قمح وفحم، فإذا كان يوم الثلج قام بفتح مطمورة وتصدق بالزرع والفحم والأدم طوال يومه، وكان لا يرجع حتى يفرغ المطمورتين، (ابن مرزوق , أ. ع، 2008، الصفحات 191-190) أما الشيخ أبو العباس السبتي رحيمٌ عطوفٌ محسناٌ إلى اليتامى والمساكين والأرام وكان يحض الناس على الصدقات (فتنثال عليه الصدقات فيفرقها على المساكين وينصرف) (ابن الزيات، أ، 1997، صفحة 452)، وكذلك يذكر الفقيه أبو محمد عبد الحق عن والده عندما كانت بفاس مسغبة وارتفعت الأسعار وكانت عند عبد الحق مؤونة فقال لزوجته: إذا جاء من يسأل لا ترده وادفعي له من ذلك الطعام، وتصدق من كل يوم بما تيسر حتى خرج فصل الشتاء (التميمي ، أ. ع ، 2002، صفحة 121).

### 3.3. الدعاء عند الكوارث

ومن عوامل تمسك العامة بالمتصوفة هو اللجوء إليهم زمن المحن وأيام الجفاف، وإن هذا التمسك بالأولياء لم يكن محض الصدفة فقد ظهر أن لهم كرامات يختصون بها، فكانوا يقصدونهم للاستسقاء تارة ولرفع الأذى من إحدى الكوارث تارة آخري، يذكر ابن الزيات عن أبا زكريا لما كان الناس في أشد الحاجة للاستسقاء وكانت السماء صافية ( فقالوا: يا أبا زكريا استسق لنا فقام أبو زكريا ورمى بقلنسوته عن رأسه إلى الأرض...وقال: يا رب هذا الأقرع يسألك الغيث والله ما نزل الناس عن ذلك المكان حتى مطروا مطراً عزيراً) (ابن الزيات، أ، 1997، الصفحات 139-138)، والولي الصالح أبو يعزي ينور الذي يتردد اسمه في الكثير من المواضع التي تربط وتوثق العامة بفئة المتصوفة يذكر صاحب المستفاد أنه لما وصل الجامع قام إليه جميع من في الجامع وشكوا إليه القحط واحتباس المطر، فدعا الله الغيث فنزل المطر (التميمي، أ. ع ، 2002، صفحة 33).

ولم يقتصر استنجاد العامة بالصلحاء في مجال الشفاء من الأمراض بل فاقه إلى مختلف الكوارث الطبيعة، ويذكر التادلي عن أبي محمد عبد الغفور عندما ذهب إلى أغمات وكان الجراد قد عم المنطقة والناس مجتمعين على القضاء عليه وعندما علموا بأبي محمد ذهبوا إليه وشكوا له ما لحق بهم من فقال لهم:( لعل الله يصرفه عنكم حتى لا تعلموا هل غاص في الأرض أم صعد في السماء، فدعا لهم وانصرفنا، فرجعت من أغمات في اليوم الثاني، فمررت بؤلائك القوم فقالوا له أقرأ سلامنا على الفقه أبي محمد وأعلمه ان الله تعالى قد أراحنا من الجراد) (ابن الزيات، أ، 1997، صفحة 253). إن توجه العامة إلى للمتصوفة قصد الدعاء كان بمثابة الاستنجاد الذي يفك الآزمة، كما تظهر صورة أخرى مدى تمسك العامة بالمتصوفة، فقد كان المصامدة يزورون وجاج بن زلوا للمطي من أهل السوس الأقصى ويتبركون بدعائه وإذا أصابهم القحط استسقوا به (ابن الزيات، أ، 1997، صفحة 89).

هذه بعض العوامل التي جعلت العامة يقصدون المتصوفة ويكونون محل ثقة إلى درجة أن الناس لجأت إليهم بعد الممات وتبركوا بقبورهم، فقد كان الناس يستشفون بتراب أبي محمد بن يحي بن يجاتن الزنات من حومة بلاد تادلا، وهو من أهل العلم والعمل ت 536هـ/1142م (ابن الزيات، أ، 1997، صفحة 132)، وكذلك أبي حفص عمر ابن مَيْكيسوط الدغدوغي ت 546هـ/1152م وهو من كبار الأولياء يستشفى الناس بتراب قبره (ابن الزيات، أ، 1997، صفحة 141)، وقد بلغ بهم أن نقلوا نقل تراب الشيخ أبي يعزي وتراب الشيخ أبي غالب النيسابوري للاستشفاء من الأمراض والقروح، إن استخدام التراب ومحاولة المداواة به أثر على الحياة الصحية لمستعمليه فلربما كان الاعتقاد السائد هو أن تراب الأولياء أحسن للعلاج من الذهاب للأطباء، أو كانت الحاجة المادية سبباً في جعل الناس يقصدون هذا العمل الذي في نظرهم غير مكلف مادياً.

### 4. حضور الكرامة في العلاج عند المتصوفة

يغلب على المتصوفة في العبادات الجانب الروحي فالزهد والانقطاع عن ملذات الحياة هو الصفة التي جبل عليها المتصوفة، وقد خص الأولياء بالكرامات التي شكلت محوراً هاماً في عملية الاستشفاء والمداواة للناس، لكن الكرامات قد تكون بالدعاء أو اللمس أو الدفل أو حث الناس على إخراج الصدقات ثم يكون الشفاء.

لقد بدأ نشاط المتصوفة الطبي مع القرن 6هـ/12م، واستمرّ في التّوسّع والتّزايد حتى نهاية العصر الوسيط، وكان حضور الكرامة عند المعالجة من الأمراض المختلفة والمتعددة، فمنها ما اشتهر به الشيخ أبو العباس السبتي الذي كان يعالج الأمراض وحلّ المشاكل بالصّدقة فكلّ مريض استنجد به يأمره بالصدقة ثم يشفى من مرضه (حقي، م، 2007، صفحة 78)، كما سلك أولياء المغرب الإسلامي أسلوب العلاج بالرقي للمرضى وعالجوا الصرع من الجن والعين، وتعددت استعمالات الرقية؛ فنجد البعض يستعين بها عند حدوث الأمراض الوبائية والمزمنة (بخليلي ،ب ، 2006، صفحة 278).

وقد كانت من عادة العامة أن يتوجهوا إلى الصلحاء إما للتطبيب وإما للدعاء لكي يتم الشفاء على يدهم، فالدعاء كان من الكرامات التي كثيراً ما تم العلاج عليها، ومن نماذج المداوة عند المتصوفة عن عبد الله بن معلي، أنه كان له صاحب يسمى بحَجَّاح وكانت عينه قد ضربت بسكين فتوجه إلى الطبيب ابن عمار وعندما فحصها أخبره أنها قد فسدت ولا يمكن معالجتها، مما جعله ينصرف وهو في حالة تحصر على فقدان عينه فلقي المتصوف عبد اله بن معلي الذي أعلمه بما حدث له وما قال له الطبيب في شأن عينه فأخذه إلى المسجد ونظر إليها ورقاها ودعا الله له، وعندما قامت زوجته في الليل ونظرت إلى عينه وجدتها قد برأت مما كانت عليه وأبصر من حينها (التميمي، أ. ع ، 2002، الصفحات 75-74).

وتجدر الإشارة أنّ طبّ المتصوّفة القائم على الكرامة كان قد تفوق على الطب العلمي في بعض الأمراض المستعصية، فصديق أبي مدين شعيب المدعو أبو لقمان يزرجانبن يعقوب الأسود ت 570هـ/1175هـ أنه كان يعالج الصرع (ابن الزيات، أ، 1997، صفحة 244)، وكذلك كان عبد الله بن عيسى بن صقر تصيبه في صغره غاشية، وقد كانت أمه تأخذه إلى الحكماء الأطباء لكن عجزوا عن مداواته فحملته إلى أبي لقمان(فمسح بيده على رأسي فما أصابني الصرع من حينئذٍ إلى الأن) (ابن الزيات، أ، 1997، الصفحات 234-233)، لقد وجد العامة في طب المتصوفة ملاذا للتخلص من بعض الأمراض خاصة المستعصية منها.

ومن أخبار الصالحين في المداواة باستعمال الريق الذي يعد من الكرامات عن الشيخ الصالح أبو تميم عبد الرحمان الهزميري أن امرأة أصيبت بالبرص في وجهها وذهب بها أخاها إلى الحكماء من الأطباء لمعالجتها فلم ينفع الدواء بها، عندها قصد الشيخ أبي تميم فعاتبه أنه تركه وذهب إلى الأطباء، وجعل يمسح بريقه البرص المرة بعد المرة وبعدها شفيت تماماً من مرضها (ابن قنفذ، أ. ب، د،ت، صفحة 31). وهذه الوقائع تبين نموذج من تفوق المتصوفة في باستعمال الكرامات.

اشتهر الشيخ أبي يعزي كثيراً بعلاجه لمختلف الأمراض وبطرق مختلفة فقد استخدم المسح باليد والدفل والرقي للمعالجة وهي من مظاهر الكرامة التي عني بها الشيخ، لكن قد أحدثت هذه الطرق الكثير من النقد له على الرغم من اعتراف ولايته عند جماعة من الفقهاء المجاورين له، حيث ذهبوا إلى أبي مدين شعيب و قالوا: (ولكن نشاهده يلمس بيده صدور النساء وبطونهن ويتفل عليهن فيبرأن ونرى أن لمسهن حرام فإن نحن تكلمنا في هذا هلكنا وإن سكتنا تحيرنا، فقلت لهم: أرأيتم لو أن بنت أحدكم أو أخته أصابها داءٌ لا يطلع عليه إلا الزوج ولم يجد من يعانيه إلا طبيب يهودي أو نصراني ألستم تجيزون ذلك) (ابن الزيات، أ، 1997، صفحة 23). لقد جعل الشيخ أبو يعزي معالجته مثل معالجة باقي الأطباء فلا يمكن عنده أن يطعن في كيفية أو طريقة المعالجة التي يتبعها، كما أن الشيخ أبا يعزي كان قد استعمل الدفل والريق للعلاج ومن أمثلة ذلك ما ذكره التادلي عن أبي يعزى ( ويحكى عنه رضي الله عنه قال مررت في بعض سياحتي بالسواحل وإذا بجارية وهي تستغيث من وجع عينها فمسحتها وذهبت فسمعتها تقول من مسح على عيني وقد استراحتا؟)، وقد استخدم الشيخ أبو يعزي الدفل على موضع المرض وبالمقابل يكون الشفاء وهذه إحدى مظاهر الكرامة، ونجد الشيخ أبي يعزي يعالج المشلولين فعندما حضر إليه رجل مقعد (فمزال يتفل عليه حتى قام) (ابن قنفذ، أ. ب، د،ت، صفحة 29)، كما نجده في موضع آخر يعالج

الصرع لكن بطريقة أكثر غموضاً، وذلك عندما جاءت إليه امرأة قد صرعها جن وهي تتخبط فقال لها بكلام (فقامت وليس بها ألم وغطت وجهها حياءً من الناس) (التميمي، أ. ع ، 2002، الصفحات 36-35)، لقد حاول الطب الصوفي أن يقوم مقام الطب العلمي أو يفوقه فأبو يعزي عالج أمراض مستعصية متعددة وبطرق مختلفة جسدت مفهوم الكرامة في العلاج والمداواة.

بهذا فإن عملية التطبيب عند المتصوفة وباستخدام طرق متعددة كالدعاء والريق واللمس كانت في الغالب محل إعجاب وذهول عند العامة فقد اسطاعوا في عدة مواضع معالجة أمراض مستعصية، لكن يمكن أن تكون القناعة بالوالي وبكراماته سبباً أولياً في بداية الشفاء والارتياح النفسي، وتبقى تلك الأمراض التي استعصت على الأطباء واستطاع المتصوفة علاجها فقد يرجع إما لبركة الدعاء والكرامة أو لمعرفة أنواع الأعشاب والعقاقير.

**5. المتصوفة وتجربة الطب الشعبي**

المقصود بالتجربة هو معرفة أنواع الأمراض وما يلزمها من ظروف صحية للشفاء أو من معرفة مفعول النباتات التي تكون ترياقاً جيداً لهذه الأمراض، فقد كان بالموازاة مع الطب العلمي وطب المتصوفة ظهور طب شعبي المأخوذ من التجربة الميدانية القائمة عن معرفة فوائد النباتات والعقاقير التي كانت منتشرة بصورة واضحة في البلاد.

**1.5. الطب الشعبي**

لقد كان أغلب الأطباء الشعبين يتكونون من الشيوخ والمسنين ويضاف إليهم بعض الحرفين والحلاقين أو الحجامين الذين يمارسون وظائف متعددة كالحلاقة، وطب الأسنان، والفصد، وعلاج الجروح، البيطرة، كما تبقي فطنة المعالج وحدسه القوي هو الفيصل (حقي، م، 2007، الصفحات 65-64)، وذكر ابن خلدون في ذلك أن ( للبادية من أهل العمران طب يبنونه في غالب الأمر على تجربة قاصرة على بعض الأشخاص متوارثاً عن مشايخ الحي وعجائزه، وربما يصح منه البعض إلا أنه ليس على قانون طبيعي ولا على موافقة المزاج) (ابن خلدون، ع، 2001، صفحة 651)، التطبيب عند أهل البادية لم يكن يعتمد على الطب العلمي بل على ما تعلمونه من التجارب السابقة.

استعمل المغاربة التداوي بالأعشاب والحمامات والكي وفي بعض الأحيان السحر والشعوذة، لكن بالرجوع إلى فترة القرن4ه/10م أطنب الطبيب ابن الجزار في طرق المداواة في كتابه طب الفقراء والمساكين، وقد اعتمد هذا الكتاب في الفترات التي تلت القرن الرابع للهجرة من أجل التداوي به من الأمراض، وقد ذكر عدداً كثيفاً من المواد العلاجية، ومن الوصفات التي كان يذكرها نوعين: فنوع له أساس صيدلي، ونوع أساسه المعتقدات الشعبي ، إن طرق العلاج والتداوي في بلاد المغرب كانت تسير وفق هذين النوعين المذكورين، والمعتقدات الشعبية ما كان يستعمل فيها الأعشاب والعقاقير بصورة كبيرة، وفي نهاية القرن 5ه/11م بدأ يظهر نوع جديد من أماكن العلاج ويقصد بها دكاكين الأسواق، وكانت تجمع أحيانا كثيرة بين بيع الأعشاب وإعداد الأدوية والمشارب، حتى أنه اتخذ بعض الأطباء دكاكين في الشوارع والأسواق لنفس الغرض (حقي، م، 2007، صفحة 33).

**2.5. بعض الطرق العلاجية الشعبية والتي تستعمل فيها الأعشاب والحيوانات**

| المواد المستعملة | طرق العلاج | المصدر |
|---|---|---|
| حب الزنم (يستخرج من نبات جبلي) | مفيد للأمراض التناسلية والجنسية | ( فيلالي، ع، 2002، صفحة 246) |
| حب العروس | شراب يعالج الصداع ووجع الأسنان | ( فيلالي، ع، 2002، صفحة 246) |
| حسو النشا | عند اشتداد الزكام السعال | ( فيلالي، ع، 2002، صفحة 246) |
| النبق(ثمر السدر شجرة من الفصيلة السدرية قليلة الارتفاع وثمرتها حلوة تأكل) | لمداواة الإسهال الشديد الذي يعرف بمرض الزرب | (ابن قنفذ , أ. ب، د،ت، صفحة 136) |

إن الكثير من الأسر الفقيرة والمحتاجة ألجأتهم الضرورة المادية والاعتقاد الجازم في نجاعة الطب الشعبي ففضلوا الاستشفاء بالأعشاب والعقاقير (بوتشيش، إ، 2008، صفحة 102) فضلا عن اللجوء إلى أمور آخري، وتحظى الأعشاب والنباتات الطبية بمكانة هامة لدى المتطببين فاستخدامها لا يقتصر على الطب التقليدي بل هي أيضاً مصدر أدوية للطب العلمي (حقي، م، 2007، الصفحات 66-65).

**3.5. نماذج لطرق استعمال الأعشاب لدى المتصوفة**

لقد استعانة المتصوفة بالأعشاب ووظفوها في عملية العلاج بطرق تختلف عن العلاج العلمي القائم في تلك الفترة الزمنية، ومن نماذج ذلك ما يرويه صاحب "المستفاد" عن الشيخ أبي يعزي بقوله: ( ورأيتفي بيته رجلا أخذته في وجهه أكلة وذهبت بأحد خديه فسألته عن حاله فقال لي: إنه لما أصابني ما ترى، دللت على الشيخ فأتيت إليه، ... ويمضغ ورق الزيتون ويتفل ذلك في موضع العلة، فلقد توقفت زيادة العلة) (التميمي، أ. ع ، 2002، صفحة 39)، استعمل أبي يعزي ورق الزيتون في موقع المرض لكن كان مصحوباً بالمضغ وهذا ما يضفي عليه جانب الكرامة رغم أنه استعان بالنبات، كما يظهر أنه استعمل في موضع آخر أوراق الدفلى التي كان يقوم بمضغها ثم يضعها على مكان الأول.

م (التادلي، أ. ا. ، 1996)، ودائما ما تكون عملية المضغ موجودة مع استعماله لنباتات، وقد اهتم أبي يعزي بالنباتات وإدراجها في عملية المداواة فقد كان يحمل معه أقراصاً مطبوخة في دقيق البلوط، وكانت هذه الأقراص تعد ترياقاً جيداً للأوجاع والتخفيف من الآلام (التميمي، أ. ع ، 2002، الصفحات 36-35).

يعد أبو يعزي نموذج من الأطباء المتصوفة الذين استطاعوا معالجة العامة لكن لم يكن الاعتماد على الأعشاب والعقاقير بالصورة التي استخدمها الطب العلمي أو الطب الشعبي القائم على المعرفة بأنواع الأعشاب وطرق استخدامها، فكثير ما يكون استخدام أبي يعزي للنباتات مصحوباً بالمضغ الأمر الذي يجعل حضور الكرمة غالباً على الأداء العملي.

**6. خاتمة**

ظاهرة التصوف نشأة بالمشرق الإسلامي وانتقلت إلى بلاد المغرب نتيجة لعدة عوامل، ومما يميزها هو حضور الكرامات لدى الأولياء وبمظاهر مختلفة.

لقد اعتمد الصوفية على أسلوب حياة جعل منهم محل ثقة لدى العامة، فقد آثر هؤلاء الفقر على الغنى وقاموا بالتصدق والإنفاق على المحتاجين من الفقراء والمساكين والعابرين للسبيل، فازداد تمسك فئات كبيرة من المجتمع بالصوفية.

اعتنى البعض من الصوفية بالطب وعالجوا الناس وفق منهجهم الذي كان بعيداً عن المعرفة العلمية بصناعة الطب، فقد اعتمدوا على الكرامات في العلاج والمداواة واستطاعوا أن يعالجوا الأمراض المستعصية على الطب العلمي في تلك الفترة، كما شكل الارتياح النفسي للعامة عند مجيئهم للمتصوفة والايمان بخوارقهم خطوة أولى من خطوات العلاج والتي تساعد المرضى على الشفاء مما جعل نسبة الشفاء من المرض عالية.

في فترة القرن السادس للهجرة والثاني عشر للميلاد كان الطب الشعبي موجودا في بلاد المغرب وكان الكثير من هؤلاء الأطباء يعالجون الناس بالاستعانة بالأعشاب والعقاقير،

استعان الأطباء من الصوفية بالأعشاب لكن كان إدراجها وفق منطق الكرامة التي لازمت المتصوفة في عملية العلاج، ولم نصادف خاصة في كتب المناقب أن المتصوفة اعتنوا بالجانب العلمي للطب أو كانت لهم معرفة حقيقية بطب المنتشر في تلك الفترة.

## قائمة المصادروالمراجع:

- ابن الزيات، أبي يعقوب يوسف بن يحي التادلي، (1997): **التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي**، تح: أحمد التوفيق، الدار البيضاء: منشورات كلية الآداب.

- ابن خلدون، عبد الرحمن، (1996): **شفاء السائل وتهذيب المسائل**، تح: محمد مطيع الحافظ، ط2، دمشق: دار الفكر.

- ابن قنفذ، أبي العباس أحمد بن الخطيب القسنطيني، (د،ت): **أنس الفقير وعز الحقير**، نشر وتصحيح: محمد الفاسي وأولف فور المركز (د،ط)، الرباط: الجامعي للبحث العلمي.

- البياض، عبد الهادي(2008م): **الكوارث الطبيعية و أثرها في سلوك وذهنيات الإنسان في المغرب والأندلس (ق 6-8هـ/ 12-14م)،ط1، بيروت:** دار الطليعة.

- التادلي، أحمد الصومعي،( 1996م): **كتاب المعزى في مناقب الشيخ أبي يعزي**، تح، علي الجاوي،(د،ط)، الرباط: مطبعة المعارف الجديدة.

- التميمي، أبي عبد الله محمد، (2002): **المستفاد في مناقب العباد بمدينة فاس وما يلها من البلاد**، تح: محمد الشريف، ط1، الرباط: كلية الآداب والعلوم الإنسانية.

- الصنعائي، محمد بن إسماعيل، (1997م): **الإنصاف في حقيقة الأولياء مالهم من الكرامات والألطاف**، تح:الرزاق بن عبد المحسن، ط1، المملكة العربية السعودية: دار ابن عفان للنشر والتوزيع.

- الطهطاوي، علي محمد عبد العال، (دت): **بدع الصوفية والكرامات والمولد**،(د، ط)، بيروت: دار الكتب العلمية.

- المازوني، موسى بن عيسى(2015م): **مختصر ديباجة الافتخار في مناقب أولياء الله الأخيار**، تح: عبيد بوداود، ط1،الجزائر: الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع.
- النهاني، يوسف بن اسماعيل (د،ت): **جامع كرامات الأولياء**، تح: عبد الوارث محمد علي، (د، ط)، بيروت: دار الكتب العلمية.
- الوزان، الحسن بن محمد الفاسي، (1983): **وصف إفريقيا**، تر: محمد حجي ومحمد الأخضر، ط2، ج1،بيروت: دار الغرب الإسلامي.
- بختة خليلي. (2015-2016م): الفقر بالمغرب الإسلامي مابين القرنين السابع والتاسع الهجريين 13 و15م اقعه وأثاره، (أطروحة دكتوراه منشورة)، كلية العلوم الإسلامية والاجتماعية، جامعة تلمسان، تلمسان.
- بن مرزوق، أبي عبد الله محمد التلمساني ،(2008م): **المناقب المرزوقية**، تح: سلوى الزاهري، ط1، الدار البيضاء: منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المملكة.
- بوتشيش، إبراهيم القادري (2008م): **مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس عصر المرابطين**، (د،ط)، بيروت: دار الطليعة.
- تركي، عبد الرحمن، 2008م). نشأة الطرق الصوفية بالجزائر دراسة تاريخية، الملتقى الدولي الحادي عشر حول التصوف والتحديات المعاصرة، ع 1، ج2،غرداية: منشورات جامعة أدرار، المطبعة العربية غرداية.
ابن الجزار، أبو جعفر أحمد، (د، ت): **طب الفقراء والمساكين**، تح: الراضي الجازة وفاروق عمر العسلي، (د،ط)، تونس: المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون تونس.
-ابن القطان، أبو الحسن علي المراكشي، (1990): نظم **الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان**، تح: محمود على مكي،ط1، ج6، بيروت: دار الغرب الإسلامي.
-ابن القطان، أبي محمد حسن بن علي المراكشي، **(د،ت): السلك المثنى النظام بما للصحابة الكرام**، تح: الحسن البربوشي، (د،ط) بيروت: دار الكتب العلمية.
ابن خلدون، عبد الرحمن،(2001): **ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، تح: خليل شحاذة، -وسهيل زكار، (د،ط)،ج1، بيروت: دار الفكر.
-البادیسي، عبد الحق بن إسماعيل،(1993): **المنزع اللطيف والمقصد الشريف**، تح: سعيد إعراب،ط2، الرباط: المطبعة الملكية.
-البرزلي، أبي القاسم بن أحمد البلوي، (2002): **فتاوى البرزلي جامع وسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكام**، تح: محمد الحبيب الهيلة، ط1،ج6، بيروت: دار الغرب الإسلامي.
-المنوني، محمد،( 2000م): **ورقات من حضارة المرنيين**، ط3، الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية.
-جورج، ما رسيه، (1999م): **بلاد المغرب وعلاقتها بالمشرق الإسلامي في العصور الوسطى**، تر: محمود عبد الصمد هيكل مر: مصطفى أبو ضيف،(د،ط)، الإسكندرية: توزيع منشأة المعارف، الإسكندرية.
-شرويك، مجمد أمين. (2012م). انتقال التصوف إلى بلاد المغرب الإسلامي، أفاق فكرية، كلية العلوم الإنسانية، جامعة سيدي بلعباس، بلعباس، (06).
Max, W. (1968). economy and Society . Paris: Bedminster Press.